الموضوع القرآني في التفسير الموضوعي

ــ دراسة نقدية ــ

أ.د/ عيادة بن أيوب الكبيسي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
كلية الشريعة ــ جامعة الشارقة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل بفضله الكتاب، وجعله سبحانه هدى للناس على مر الدهور والأحقاب، عصمةُ من الخطأ ومحضّه للحق والصواب، والصلاة والسلام على خير مفسر لهذا الكتاب، سيدنا النبي المصطفى عالي القدر رفيع الجناب، وعلى آله وأصحابه نعم الآل والأصحاب، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فلا يخفى ما للتفسير الموضوعي من أهمية ومكانة، فمنذ أن برز باعتباره علما مدونا في القرن الماضي ــ القرن الرابع عشر الهجري ــ، اعتنى به العلماء أيما عناية، وأولوه اهتمامهم دراسة وتأليفا، وتعلما وتعليما، فكتبت الكتب ووضعت الرسائل، وتنافس أهل المعرفة في خدمة كتاب الله تعالى، فظهر كم لا بأس به من الدراسات القرآنية بهذا الخصوص، غير أن الموضوع القرآني كان له النصيب الأوفر من ذلك، فما كتب فيه لا يكاد يحصى، وهو يشكل فرقا شاسعا بينه وبين ما كتب في المصطلح القرآني أو تفسير السورة تفسيرا موضوعيا، إلا أن هذا الكم الهائل من البحوث والكتب والرسائل، لم يكن سواء، بل ثمة تفاوت ملحوظ بينها سواء من حيث التزام منهجية محددة، أو استطراد قد يبتعد كثيرا عن المقصود، أو معالجة جادة هادفة، أو اختيار موفق، له ارتباط ملموس بالحياة الاجتماعية، وتعلق بين بالواقع، الذي يهدف إليه التفسير الموضوعي.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث، الموسوم بــ (الموضوع القرآني في التفسير الموضوعي ــ دراسة نقدية)، وذلك مشاركة في هذا المؤتمر المبارك، الذي انبثقت فكرة إقامته منذ أكثر من عام، وذلك بعد أن تم إنجاز مشروع تفسير سور القرآن الكريم تفسيرا موضوعيا، الذي تبنته مجموعة بحوث الكتاب والسنة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة بإشراف الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى مسلم حفظه الله تعالى.

والحق أن السير في انعقاد هذا المؤتمر قد واجهته عقبات كادت تعصف به، لولا فضل الله تعالى ثم الجهود المشكورة متمثلة بعميد الكلية وأعضاء مجموعة بحوث الكتاب والسنة، فذلل الله تعالى بفضله العقبات، وتيسر انعقاد هذا المؤتمر، وإن تأخر عن الوقت الذي حدد له سابقا، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أرى أن البحث يندرج تحت المحور الثاني، وقد قسمته إلى مقدمة وقسمين وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

مقدمة: وهي هذه.

القسم الأول: نقد ألوان التفسير الموضوعي، وفيه المطالب الآتية:

المطلب الأول: تعريف مختار للتفسير الموضوعي، وبيان أهميته.

المطلب الثاني: نظرة نقدية لألوان التفسير الموضوعي، ومكانة الموضوع القرآني منها.

المطلب الثالث: ضوابط منهجية الكتابة في الموضوع القرآني.

القسم الثاني: نقد موضوع (الألوهية من خلال آيات القرآن) في كتاب مباحث في التفسير الموضوعي.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نبذة مختصرة عن الكتاب ومؤلفه.

المطلب الثاني: جوانب القوة في عرض الموضوع.

المطلب الثالث: بعض المَلاحظ على الموضوع.

وأما الخاتمة: فذكرت فيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

ثم بعض المقترحات والتوصيات.

والله تعالى وحده هو الموفق والمستعان.

القسم الأول

نقد ألوان التفسير الموضوعي

المطلب الأول: التعريف المختار للتفسير الموضوعي، وبيان أهميته.

اختلفت أنظار الباحثين في تعريف التفسير الموضوعي، ما بين مطنب ومختصر ومتوسط، شأن أي علم جديد، أريد له أن يكون فنا مدونا.

وقد أورد الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم باعتباره من أوائل من كتب في هذا العلم، عدة تعاريف، ثم اختار تعريفا رأى أنه هو الأولى والأوفق والأرجح، فقال: (هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية، من خلال سورة أو أكثر) [1]، وعلل ذلك بقوله: لخلوه عن التكرار، ولإشارته إلى نوعيه الرئيسين، والتعاريف السابقة يغلب عليها طابع الشرح والتوضيح لمنهج البحث عن التفسير الموضوعي.

ونلحظ من هذه المقولة أن فضيلة الدكتور يحرص على إدخال النوعين الآخرين ضمن التفسير الموضوعي، وهما المصطلح القرآني، وتفسير السورة تفسيرا موضوعيا، ويبدو أن هذا هو الذي حدا به إلى اختيار كلمة القضايا بدل كلمة الموضوع.

ولدى التأمل في التعاريف التي أوردها، حاولت أن أمزج بين تعريفين وهما: الثاني والثالث [2]، وأصوغ منهما تعريفا مختصرا ينطبق على التفسير الموضوعي، باعتبار هذه التسمية الدقيقة، فجاء التعريف بهذه الصيغة:

هو بيان موضوع قرآني في سورة أو سور، حسب المقاصد القرآنية.

وذلك لما سيأتي من أني أرى أن كلمة (الموضوعي) تنصرف إلى الموضوع، وأن حملها على الألوان الأخرى لا يخلو من تكلف، ثم إن إفراد كل لون بعلم مستقل ودراسته دراسة متأنية أليق بها لما لها من أهمية ومكانة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقد حاولت الاختصار في التعريف ما أمكن، ولا يخفى أنه الأولى ما لم يكن فيه إخلال، وما ذكر كاف في الدلالة على المقصود، وهي وجهة نظر من الباحث والله تعالى أعلم.

---

[1] مباحث في التفسير الموضوعي ص 16، ويراجع كتاب: مناهج التفسير الموضوعي للدكتور أحمد رحماني فقد ذكر تعريفا مطولا ص 14 حيث قال: (التفسير الموضوعي هو: منهج مستحدث في الدراسة القرآنية، يستهدف سبر أغوار الموضوعات المختلفة من اجتماعية وأخلاقية وكونية وغيرها، من خلال تفسير سورة القرآن بعدها كلا يعبر عن موضوع واحد، أو من خلال تفسير الآيات المجموعة للتعبير عن عناصر موضوع معين، لغرض الخروج بتصور سليم حوله، أو نظرية علمية فيه).

[2] أرى أنه من المناسب هنا أن نذكر التعريفين، فالثاني هو: جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن، المتعلقة بالموضوع الواحد، لفظا أو حكما، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية. والثالث هو: بيان موضوع من خلال آيات القرآن الكريم، في سورة واحدة أو سور متعددة. انظر مباحث في التفسير الموضوعي ص 16.

وأنا لست بدعا في هذا الرأي فقد سبق إليه الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، وهو يعترض على ما يسمى بالوحدة الموضوعية في القرآن كله، أو سورة منه، حيث قال:

وارى ــ والله أعلم ــ أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي، لأن موضوعه وهو "هدف السورة" المتعددة الآيات، أمر التماسي اجتهادي، تختلف فيه الأنظار، فكيف تصنف الآيات في السورة على هدف مختلف على تحديده؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال؟ مع أن الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على أساس النصوص ذاتها، أو معانيها المتحققة.

ومع أني أحد أعضاء مجموعة بحوث الكتاب والسنة، وقد شاركت بحمد الله في الكتابة في التفسير الذي صدر حديثا، إلا أني أرى أن هذه وجهة نظر، حرية بالدراسة والتأمل، وحبذا لو اختير لهذا اللون من التفسير اسما خاصا به، كالتفسير المحوري ، أو المقاصدي لسور القرآن الكريم مثلا، أو التكاملي أو الكشفي كما يسميه بعضهم أو نحو هذا، لأن قولنا: (تفسير سور القرآن تفسيرا موضوعيا) قد يوحي إلى أن المراد تناول موضوعات السورة بالتفسير، لاسيما وأن غالب السور تشتمل على أكثر من موضوع، سواء في ذلك الطويلة والقصيرة كما هو معلوم.

وقد ألمح الدكتور عبد الستار إلى هذا بقوله:

(وإلى أن تقوم لهذا الضرب خطة علمية محكمة القواعد، واضحة المعالم، فإننا نعده من باب الدراسات القرآنية العامة، وليس في التفسير الموضوعي).[3]

أقول: وقد تم وضع هذه الخطة للتفسير المشار إليه، غير أن الباحثين لم يلتزموا بمنهج موحد، وذلك لاختلاف وجهات النظر التي أشار إليها الدكتور كما سبق.

ولذا فأنا أؤيد ما ذكره الدكتور مصطفى مسلم في مقدمة التفسير حيث قال وهو يشير إلى عدم الالتزام بالخطة المرسومة للسير في المشروع: (.. وفوجئنا بمنهج مختلف لتفسير السورة)، وقال وهو يشير إلى التفاوت في الأساليب: (.. فعلى الرغم من المبادئ الواضحة للمشروع والنقاط المحددة، وعلى الرغم من الالتزام بها فقد كان هنالك تباين واضح في الأساليب، سواء في المعنى الإجمالي لآيات المقطع، أو الربط بين مقاطع السورة، أو الربط بينهما وبين محور السورة، وهذا الأمر لا آظن أن يتجاوز في المستقبل ما دامت الشخصيات العلمية متعددة) [4].

---

[3] انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي ص 25.

[4] انظر التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ــ المقدمة 1 / ص و.

وقد رجوت منه أكثر من مرة أن يباشر هذا العمل بنفسه، ليخرج تفسيرا كاملا باسمه على غرار ما صنعه جهابذة المفسرين، كالرازي والآلوسي والشوكاني ونحوهم، لما في ذلك من اتحاد المنهج، وسلامة الطريقة، وقد أشار في المقدمة أيضا إلى مثل هذا حيث قال:

ولكن خروج المشروع بهذه الصورة وبهذا المنهج المحدد سابقة لا مثيل لها، لعلها تفتح الآفاق أمام أهل العلم من المتخصصين في التفسير وعلوم القرآن، وخاصة الطاقات الشابة أن يستفيدوا من هذا العمل، ليقوم أحدهم بتفسير كامل للقرآن الكريم بغية توحيد الأسلوب والمنهج)[5]

وأما عن تحديد هدف السورة وتعيين محورها فهو موضع اجتهاد، وسيكون مقبولا إلى حد كبير من متخصص له قدم راسخة في هذا العلم، بل يعد من المؤسسين له، الذي تربت عليه أجيال وأجيال، بارك الله في عمره وشكر سعيه.

---

[5] المرجع السابق .

المطلب الثاني

نظرة نقدية لألوان التفسير الموضوعي

ذهب أغلب الباحثين في التفسير الموضوعي إلى تقسيمه إلى ثلاثة ألوان[6]، وهي:

1 –التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، وهو أن يعمد الباحث إلى تحديد موضوع معين قد تعرض له القرآن الكريم، ثم يتتبع ذلك الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، ويستخرج الآيات التي تناولته.

2 –التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني، وذلك بتتبع لفظة من كلمات القرآن الكريم، في السور والآيات، مع ملاحظة اشتقاقها وتصاريفها المختلفة، ثم يجتهد في استخراج الدلالات والهدايات منها.

3 –التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، وذلك بالبحث عن الهدف الأساس في السورة الواحدة، ويدرسها دراسة موضوعية متكاملة، تبدو معها تلك السورة وحدة موضوعية متناسقة، وقد كان للسابقين استشراف لهذه الوحدة الموضوعية في السورة، منهم الإمام الزمخشري والرازي، وممن اعتنوا بها عناية فائقة من المعاصرين سعيد حوى في الأساس في التفسير، وسيد قطب في ظلال القرآن[7].

هذا التقسيم كما تقدم لم يكن موضع اتفاق بين العلماء الذين كتبوا في التفسير الموضوعي، فمنهم من لم يقل بهذا التقسيم، فالدكتور عبد الستار سعيد لم يسلم من هذه الأقسام إلا بالأول كما ألمحنا إلى ذلك في المطلب السابق، والدكتور مصطفى مسلم وإن عد المصطلح القرآني من ألوان التفسير الموضوعي إلا أنه لم يذكر في الدراسة التطبيقية مثالا له كما صنع مع الموضوع والسورة، وأيضا فقد عد أن عمل الذين كتبوا في هذا اللون جاء أشبه ما يكون بالتفسير الموضوعي للموضوع القرآني.[8]

ثم إن كل الذين كتبوا في التفسير الموضوعي يرون أن أهم هذه الأنواع وأبرزها هو الموضوع القرآني، حتى قال الدكتور مصطفى مسلم: وهذا اللون من التفسير الموضوعي هو المشهور في عرف أهل الاختصاص، وإذا أطلق اسم التفسير الموضوعي فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه، ولقد كثرت المؤلفات قديما وحديثا في هذا اللون من التفسير

---

[6] ينظر في هذا الكتب التي تحدثت عن التفسير الموضوعي، ومنها المراجع السابقة.

[7] انظر التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص 56 فما بعدها.

[8] انظر مباحث في التفسير الموضوعي ص 23-24.

الموضوعي[9]، ومن تعريف الدكتور زاهر عواض الألمعي للتفسير الموضوعي يتبين مدى أهمية الموضوع، فقد عرفه بقوله: (هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم، المتعلقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية، مع الربط بينها لخدمة الموضوع الذي وردت فيه)[10].

ولهذا وبعد التأمل في عنوان هذا العلم (التفسير الموضوعي)، أقول:

حبذا لو اقتصر على هذا اللون من التفسير وهو الموضوع القرآني، وتم اختيار مسميات جديدة للأنواع الأخرى، لتشكل علما جديدا يضاف إلى العلوم المتعددة في الدراسات القرآنية.

وتوضيح ذلك:

أنه لا يخفى أن الموضوع القرآني يعد من أبرز سمات التفسير الموضوعي، وأن أغلب الكتابات في العلم إنما جاءت فيه، سواء في ذلك الرسائل الجامعية وغيرها، مما يشير إلى أهمية هذا اللون من التفسير، ووضوح معالمه، ووفرة موضوعاته، الأمر الذي يوجب على المختصين أن يولوه عنايتهم بوضع خطة منهجية موحدة ترشد إلى السير فيه، وفق ضوابط وخطوات محددة، وتحاشيا للمنهجية المتخبطة التي يسير فيها الباحثون لاسيما في الرسائل الجامعية، حيث إنا نرى كما هائلا من ذلك، لا يسير وفق خطة سليمة، بل ربما جاء في تلك البحوث حشوا كثيرا، لو ذهبنا إلى ضرب أمثلة من ذلك لطال بنا البحث، وما أظن أحدا من المختصين ينكر هذا، كما إن هذا المؤتمر ما عقد إلا من أجل الوصول إلى هذه الخطة المسددة بإذن الله تعالى وتوفيقه.

ثم إني أرى ــ من وجهة نظري ــ أن كثيرا من الباحثين لم يفرقوا بين المصطلح القرآني والموضوع القرآني، وذلك لدقة التفريق بينهما، ولإمكان أن يكتب في الكلمة الواحدة في أحد الموضوعين، كالخير مثلا والجهاد ونحو ذلك، فلا يفرق بين الاتجاهين إلا المعالجة الدقيقة، فإذا عدمت هذه المعالجة حصل الخلط بين اللونين من هذا التفسير.

وأيضا عدم التفرقة بين المصطلحات القرآنية نفسها، فنجد أن بعض الباحثين يسارع إلى القول بالترادف بين تلك المصطلحات، دون تدقيق النظر في ذلك.

---

[9] السابق ص 27.

[10] انظر دراسات في التفسير الموضوعي ص 11، وقال أيضا ص 26: (وإذا أطلقت كلمة " تفسير موضوعي" فلا يفهم منه إلا بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم على مستوى القرآن جميعه).

أضف إلى ذلك ضعف قدرات بعض الباحثين، وعدم استيعابهم لفكرة المصطلح، خاصة في الرسائل الجامعية التي يعدها طلبة الدراسات العليا في التفسير الموضوعي، فيلاحظ أن عددا غير قليل منهم، لا يرقى إلى فهم النص الكريم، ولا يحسن استثماره، ليخرج بتصور شامل لما هو بصدد بحثه، وأظن أن هذا قدر مشترك بين طلبة الجامعات، ولا يخفى على الأساتذة المتخصصين.

فلو أعيد النظر في المصطلح القرآني، ودرس دراسة متأنية فاحصة، ووضعت له قواعد تخصه، ومنهجية متكاملة، واسما خاصا به كأن يكون: تفسير المصطلح القرآني مثلا أو تفسير المصطلحات القرآنية، لربما كان ذلك أدق وأولى، ومثل هذا يقال في تفسير السورة الواحدة تفسيرا مستقلا، كما سبقت الإشارة إليه في المطلب السابق ــ والله تعالى أعلم ــ.

أقول:

بعد أن كتبت هذا وقفت على ما أثير في ملتقى أهل التفسير حول التفسير الموضوعي، وأنا لست مع الذين تكلموا على التفسير الموضوعي بوجه عام، ولا مع الذين زعموا أنه بمعزل عن التفسير التحليلي، وأن من ادعى أن أحدا ممن كتب في التفسير الموضوعي ممن يرجع إليهم في هذا الشأن قال بذلك فقد أخطأ، فإن رواد هذا العلم يصرحون بأن التفسير الموضوعي ما هو إلا لبنة في هذا الصرح العظيم، فالدكتور مصطفى مسلم بعد أن عد الرجوع إلى التفسير التحليلي بدراسة آيات الموضوع دراسة وافية في كتب التفسير التحليلي، والتعرف على أسباب نزولها ــ إن وجدت ــ من خطوات منهج البحث في الموضوع القرآني يقول:

(إذن نستنتج من كل ما تقدم أن أنواع التفسير متداخلة متساندة، لا يستغني المفسر لنوع منها عن الأنواع الأخرى، وبخاصة الباحث في التفسير الموضوعي، لا بد أن يكون على مستوى رفيع من الإحاطة بأنواع التفسير الأخرى، لأن الأنواع الأخرى من التفسير هي اللبنات الأولى، والمادة الأولية التي يريد إقامة بنيان تفسيره الموضوعي عليها) [11]، وبنحو هذا صرح غيره من رواد هذا النوع من التفسير.

فهل يصح بعد هذا التصريح أن يقال إن القائلين بالتفسير الموضوعي يفصلون بين أنواع التفسير، أو يهملون التفسير التحليلي، ولا يعيرونه أهمية؟!!

ولكن لفت نظري ما كان يدور بخاطري مما ذكروه من الكم الهائل من الاستطرادات التي قد لا تمت إلى الموضوع بصلة، (فبعضهم ينحى في الكتابة إلى الأسلوب الأدبي الخطابي،

---

[11] انظر مباحث في التفسير الموضوعي ص 37و ص 54.

فتراه يقلب عبارته، ويبدي ويعيد في ألفاظ ينتقيها، ويطيل الكلام في موضوع يمكن إجماله في سطر ونصف سطر)، ثم ذكر حقيقة مسلمة قد وقفت بنفسي على شيء منها، وربما لا ينكرها كثير من الباحثين فيقول: (وقد اطلعت على رسائل سارت على هذا الأسلوب، فاستغربت القصد إلى هذا التطويل في العبارات لأجل إثبات قضية يمكن إثباتها وبيانها بأقل مما الحال عليه في هذه الرسائل، حتى ظهر لي أن هذا الأسلوب مقصود لذاته، ولا تتم الرسالة إلا به، وهذا ــ في الحقيقة ــ من الحشو الذي يمكن الاستغناء عنه)[12].

لا شك أن هذه حقيقة ملموسة، تشير إلى واقع موجود، ومن أراد أن يقف على أمثلة لهذا الاستطراد فلن يجد صعوبة في الوصول إلى ذلك، ولكن علينا أن نبحث السبب الذي أدى إلى مثل هذا، فإذا كان قد عيب على الرازي رحمه الله تعالى كثرة استطراداته في تفسيره التحليلي مع أنه بناه على العقل، وعيب على القرطبي كثرة إيراده الأحكام الشرعية مع أنه سمى تفسيره "الجامع لأحكام القرآن"، ومثل هذا قيل في أبي حيان واستطراداته في النحو في تفسيره " البحر المحيط"، فإذا كانوا قد عدوا هذه الاستطرادات عيبا في التفسير، فينبغي أن ينصب النقد على ما في التفسير الموضوعي من استطرادات، لمخالفتها منهجية البحث في هذا التفسير، ونقد ذلك ــ على ما أرى ــ يقوم على ثلاثة أمور:

1 - عدم وضوح المنهج لدى بعض الباحثين.

2 - عدم التزامه ــ لسبب ما ــ عند آخرين.

3 - ملاحظة الكم لاسيما في الرسائل الجامعية.

أما الأمر الأول: فلو أن الباحث التزم بالمنهج الدقيق الذي وضعه القائلون بالتفسير الموضوعي، لما وقع فيما وقع فيه، إذ كيف يقع في مثل هذا الاستطراد المخل، وهو يقرأ قولهم:

ــ على الباحث أن يلتزم بالمنهج الصحيح في التفسير، وذلك بإبعاد الروايات الضعيفة والإسرائيليات والقصص التاريخي، عند عرض الموضوع القرآني، وتركيز الجهد لاستنطاق النصوص الكريمة، على قواعد اللغة والأساليب البيانية، ودقة الاستنباط.

وقولهم:

---

[12] ينظر موقع ملتقى أهل التفسير ــ التفسير الموضوعي .. وجهة نظر أخرى.

ـ عند الحاجة إلى شرح كلمة غريبة أو توجيه قراءة، أو إبراز نكتة بلاغية، أثناء عرض أحد عناصر الموضوع، يجعل ذلك تعليقا في الحاشية، من غير استطراد يخلّ بتسلسل الأفكار، وتعانق الفقرات، وسلاسة الأسلوب، وإشراقة البيان[13].

ولا شك أن مثل تلك الاستطرادات في الرسائل الجامعية لو تمت مناقشتها من قبل الأساتذة المهتمين بالتفسير الموضوعي، لما مرت على ما هي عليه، ولبينوا وجه الخلل فيه، وألزموا الباحث بالتعديل والتصحيح، ولكن المشكلة تكمن في عدم تمكن كثير من الطلبة من خوض غمار هذا العلم، وأيضا فإن بعض الأساتذة المشرفين على تلك الرسائل أ و المناقشين لها، لم تكن لهم خبرة في الإحاطة بمفهوم هذا العلم، ومن هنا جاء النقد الشديد لعدد غير قليل من تلك الرسائل[14].

وأما الأمر الثاني: فقد يكون العدول عن المنهج بعد معرفته والوقوف عليه، لسبب ما، كأن يكون مرد ذلك إلى عدم الاعتداد به ـ مثلا ـ، أوقد يكون للباحث رأي آخر فيه، ولا يخفى أن المنهج الدقيق للكتابة في التفسير الموضوعي لما يحدد بعد، وكما ذكرنا فإن هذا المؤتمر قد كان من أول أهدافه:

ـ إرساء منهجية سليمة للتفسير الموضوعي!!

فما نسميه نحن استطرادا قد لا يراه هو كذلك، ولذا فقد أحسنا الظن فأطلقنا السبب لذلك العدول فقلنا: لسبب ما!! ومن هنا لزم تحديد هذه المنهجية وتعميمها، وإلزام كافة الباحثين بها.

وأما الأمر الثالث: فهو بين واضح، وللأسف فإنه لم يزل الكثير منا يعير للكم بالا، وقد يكون ذلك عن قصد لغرض ما، كأن يكون ثمة شرط في عدد الصفحات فهو حريص على استكمال ذلك، وقد يفصح بعض الباحثين عن ذلك، فيبين أنه سيسلك أكثر من منهج وأكثر من طريقة في بحثه لتغطية مفردات خطة بحثه، كي يتسنى له إخراج رسالته التي يقوم بإعدادها، على الصورة المرسومة لها، والحجم المخطط له مسبقا!! أضف إلى ذلك ما يقع فيه بعض الباحثين مما يسمى بلغة التطويل!!

---

[13] انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص 39.

[14] مما يذكر هنا أن عددا من بحوث الأساتذة المشاركين في هذا المؤتمر المبارك جاءت بعنوان: نقد الرسائل الجامعية في التفسير الموضوعي، وذلك بذكر نماذج من بعض الجامعات الإسلامية.

فنرجو أن لا يصدق على هذا المسلك ما أشار إليه الشاعر القديم، إذ يقول:

ما أرانا نقول إلا معارا   ومعادا من لفظنا مكرورا[15]

وأود أن أنبه إلى أنه لا يفهم من كلامي هذا التقليل من شأن الجهود المبذولة بهذا الخصوص، ولا بالاستنتاجات الحميدة، أو عدم اعتبار الكم مطلقا، إذ التحقيق أن ذلك بحسب المقتضى، وحتى الاستطراد فإنه قد يحمد إذا جاء في مكانه، ودعت إليه طبيعة البحث العلمي، ولا يخفى أن ثمة رسائل جامعية ضخمة، وبحوث علمية متنوعة، وكتب رائدة، تتميز بالدقة والموضوعية، فهي على ضخامتها تحتوي على علم متين، وذات منهج منضبط سليم.

فكلامنا هنا منصب على الحشو، والاستطراد البعيد، وما يمكن الاستغناء عنه، مما لا داعي له، وهذا على ما لا يخفى ــ أيضا ــ موجود في عدد غير قليل من الرسائل والكتب والبحوث.

ولا أريد هنا أن أقف عند بعض تلك الرسائل أو الكتب والبحوث، وسأكتفي بضرب بعض الأمثلة على وجه العموم.

فالذين كتبوا في موضوعات أو مصطلحات قرآنية محددة مثلا، نرى بعضهم حين يريد أن يتكلم على المعنى اللغوي، ينقل صفحات كثيرة عن معاجم اللغة، فيقول قال ابن فارس وينقل كل ما ذكر عن تلك اللفظة في معجم مقاييس اللغة، ثم يقول: قال ابن منظور فينقل كل ما جاء في لسان العرب، وقل مثل هذا في المعاجم الأخرى، ثم يعرج أيضا إلى بعض كتب التفسير التي تعنى بالمعنى اللغوي، فيورد كل ما جاء فيها، فيتجمع له من ذلك صفحات كثيرة، في حين أن المعنى قد يتكرر بين تلك المراجع، فكان يكفي في مثل هذه الحال أن يذكر واحدا ثم يشير إلى ما يوافقه في الهامش، وبذلك يمكن أن يورد المعنى اللغوي في صفحة أو أقل من ذلك، وفي ذلك غنى عن تلك الصفحات الكثيرة.

نعم قد يفيد هذا النقل في كتاب يوضع للتدريس مثلا، من أجل إفادة الطلبة، وتدريبهم على أساليب العلماء في التعبير، ولكنه لا يتفق مع المنهجية التي نريدها في الكتابة في الموضوع القرآني.

---

[15] قائله كعب ن زهير بن أبي سلمى، ويروى: رجيعا بدل معارا، انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 98/17، والترجيع: ترديد القراءة، ومنه ترجيع الأذان كما في النهاية 202/2، وله معان آخر لكن هذا هو المراد هنا.

وقل مثل هذا في النقل عن المفسرين الذين يكون اختلافهم من باب التنوع، فيتفقون في المعنى، ويختلفون في أساليب التعبير، فهناك من ينقل عن تفاسير كثيرة، مع أنها في منهج واحد وفكرة واحدة، والمنهجية السليمة، تقتضي في مثل هذه الحال أن ننقل الفكرة، ونشير إلى المراجع التي استقيت منها، أو ننقل عن واحد، ثم نذكر من وافقه في ذلك، ويستحسن ملاحظة الزمن في هذا الاختيار، ليعرف السابق من اللاحق، وتظهر أفضلية من سبق في ذلك.

المطلب الثالث

ضوابط منهجية الكتابة في الموضوع القرآني

هذا مطلب مهم، وهو ما ينبغي أن نركز عليه في هذا اللقاء المبارك مع رجال التفسير في العالم الإسلامي الكبير، فالخلل الذي يقع به بعض الباحثين، أو اختلاف المناهج الذي تؤدي إليه طبيعة البحث حسبما يرى كل باحث، يمكن تلافيها بوضع خطة محكمة تقوم على أسس محددة، تكون هي الحكم في صحة المنهج بعد الاتفاق عليها.

وبعد النظر في الكتب المتخصصة، والإطلاع على ما ذكره رواد التفسير الموضوعي، ودراسة الخطوات المنهجية للسير في كتابة الموضوع القرآني، أرى أن تلك الخطوات مهمة جدا، لتكون منطلقا لتحديد ضوابط المنهجية المنشودة، ولذا فسأعرض هذه الخطوات باختصار، وأضيف إليها بعض التوضيحات أو النقاط، ثم أحاول دراسة موضوع معين في ضوئها، لتظهر لنا مدى سلامة التقيد بتلك الخطوات، وتبرز الفوائد المترتبة على ذلك.

وتتلخص تلك الخطوات ــ مع بعض الإضافات ــ في سبعة عشرة نقطة على النحو الآتي[16]:

1 - تحديد الموضوع القرآني ودقة اختياره، بحيث يكون موضوعا قرآنيا، مستوحى من الآيات التي تتحدث عن ذلك.

2 - التركيز على الموضوع المختار، والحذر من الخلط بين الموضوعات القرآنية.

3 - يستحسن اختيار الموضوعات القصيرة، إذ ذاك أدعى للاستيعاب، وظهور الهدايات والفوائد، ومعالجة القضايا المعاصرة.

4 - جمع الآيات الكريمة ذات العلاقة بموضوعه، والتأكد من عدم إغفال شيء منها، وقد سهل جهاز الحاسوب اليوم هذه العملية بكل دقة وإتقان.

5 - ترتيب تلك الآيات حسب النزول ــ إن أمكن وإن وجد ــ، إذ ليس لكل آية سبب وليس كل ما ذكر من أسباب النزول صحيح.

---

[16] ينظر في هذه الخطوات: التفسير الموضوعي للدكتور محمد القاسم ص 12–19، دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر عواض الألمعي ص 26–28، المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ص 56–57، مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص 37–39، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق للدكتور صلاح الدين الخالدي ص 70–72، مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي للدكتور أحمد بن عثمان رحماني ص 17–19.

6- درء موهم الاختلاف والتعارض، وإزاحة الإشكال، ودرء الشبهات ــ إن بدا شيء من ذلك ــ، موقنا أن القرآن لا يوجد فيه اختلاف تناقض، وما وراء ذلك يمكن التوفيق بين الآيات بعضها وبعض، لاختلاف الجهة من الزمان أو المكان، أو الحقيقة أو المجاز، أو اختلاف جهتي الفعل أو وقوع المخبر به على أحوال مختلفة ونحو ذلك.

7- تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة، منتزعة من الآيات نفسها، وإن أمكن رد الآيات إلى مجموعات محددة كان أحسن.

8- دراسة هذه الآيات دراسة متأنية واعية، وذلك بالرجوع إلى أمهات كتب التفسير من المنقول والمعقول.

9- تفسير تلك الآيات تفسيرا إجماليا، يتفق مع شروط التفسير المعروفة، مدعما ذلك بما ورد من أسباب النزول، وما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأقوال السلف من الصحابة والتابعين، إذ لا غنى للمفسر عما صح من ذلك، وقد ذكر الدكتور رحماني أن العمل على فهم الآيات يكون في إطارين: إطار السياق التاريخي الذي نزلت فيه، وإطار السياق الذي وضعت فيه بالنسبة للموضوع الذي هو محل الدراسة[17].

10- الإفادة من القراءات القرآنية، سواء في ذلك المتواترة وغيرها، إذ من المعلوم أن القراءات الشاذة تنفع كثيرا في التفسير، فهي لا أقل من أن تكون من تفسير الصحابي.

11- العناية باستنباط الهدايات والدروس والعبر والعظات من الآيات، وليكن التركيز على ما له صلة بالواقع، مما فيه إفادة للمجتمع الإسلامي، وحل مشاكله.

12- الابتعاد عن التكلف، وليّ عنق الآيات، أو تحميل النصوص ما لا تحتمل، لاسيما في التفسير واستنباط الهدايات واستخلاص الدروس والعبر.

13- كذلك الابتعاد عن التكلف والتعسف في الربط بين الآيات، وأرى أن هذا والذي قبله يقال فيه ما يقال في ذكر المناسبات بين الآيات، بأن التكلف في كلٍ مذموم لا ينبغي أن يصار إليه.

14- ملاحظة السياق القرآني لاسيما في التفسير الإجمالي، فإن لذلك أثرا واضحا في تجلية المعنى المراد.

---

[17] انظر مناهج التفسير الموضوعي ص 18.

15 - التقيد بمنهج البحث العلمي، بعيدا عن الحشو، وكثرة الاستطراد، فإن كانت ثمة حاجة إلى نكتة بلاغية أو عقلية، فليكن ذلك في الحاشية على طريق الاختصار.

16 - عدم التوسع في المعاني اللغوية، والاقتصار في النقل على ما لا بد منه، وإذا اتفقت المراجع على معنى فيكفي أن يذكر بعضها ويشار إلى ما يوافق ذلك في الهامش، فربما أغنت بضعة أسطر عن بضع صفحات!!

17 - بذل الجهد للخروج بتصور نظرية حول الموضوع الذي هو بصدد بحثه[18].

فإذا ما التزم الباحث بهذا المنهج، وسار وفق هذه الخطوات، فسيأتي بحثه بتوفيق الله تعالى وعونه، موفيا بالغرض، مقتصرا على المطلوب، خلوا من الحشو والتكلف.

ولا يهم بعد هذا أن يكون البحث طويلا أو قصيرا، إذ لا عبرة للكم، إنما العبرة بالكيف، وسلامة المنهج، والسير وفق الضوابط المقررة، والخطوات المنهجية، والله تعالى هو الموفق والمستعان.

---

[18] ذكر هذه الخطوة الدكتور رحماني ص 19 وقال: ولكن الخروج بنظرية يتوقف بصورة أساسية على عمق المنهج وذكاء الباحث، لأن ذكاء الباحث يتبع دائما حال النفس، فإذا فقدت صفاءها فقد الذكاء عمقه.

القسم الثاني

نقد موضوع (الألوهية من خلال آيات القرآن) في كتاب مباحث في التفسير الموضوعي

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نبذة مختصرة عن الكتاب ومؤلفه.

ــ كتاب "مباحث في التفسير الموضوعي":

يعد كتاب مباحث في التفسير الموضوعي، من أوائل ما كتب في هذا الفن، وقد رزقه الله تعالى القبول، فهو يدرس في جامعات متعددة، وقد حظي باهتمام أهل العلم لاسيما المتخصصين في التفسير وعلوم القرآن، وقد عده الدكتور الخالدي من أجود المؤلفات في التفسير الموضوعي[19]، وجعله على رأس قائمة المؤلفات في هذا الفن.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى قسمين: قدم في القسم الأول دراسة نظرية منهجية، ذكر فيها تعريفات التفسير الموضوعي بعد أن أصبح علما على لون من ألوان التفسير ، ثم خلص إلى تعريف رآه هو الأرجح فقال: (هوعلم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر)، وعلل سر ترجيح هذا التعريف بأمرين، الأول: خلوه عن التكرار، والثاني: إشارته إلى نوعيه الرئيسين.

وبعد أن تحدث عن نشأة هذا العلم وألونه وأهميته، شرع في بيان مناهج البحث فيه، فبين منهج كل لون من ألوانه في خطوات محددة، تجعل القارئ على بينة لدى الكتابة في لون من تلك الألوان.ثم تكلم بتفصيل عن علم المناسبات وعلاقته بالتفسير الموضوعي، وضرب نماذج متنوعة في ذلك.

وأما القسم الثاني فجعله في الدراسة التطبيقية، ويلاحظ أن المؤلف الفاضل اقتصر على الموضوع القرآني وتفسير السورة تفسيرا موضوعيا، ولم يذكر شيئا عن المصطلح القرآني. والموضوع ــ وهو الذي نتحدث عنه ــ جاء بعنوان: "الألوهية من خلال آيات القرآن"، وأما المثال التطبيقي لتفسير سورة تفسيرا موضوعيا، فجاء بعنوان: "القيم في ضوء سورة الكهف".

هذا عرض سريع للكتاب، وهو كما قدمت غني عن التعريف لشهرته وسعة انتشاره، فقد قرأناه منذ زمن بعيد، وأفدنا منه ودرسناه أيضا والحمد لله، فجزى الله تعالى مؤلفه خيرا، وجعله من العلم النافع المدخر للعقبى، الذي لا ينقطع نفعه بإذن الله تعالى.

---

[19] انظر التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص 30-31.

وبالجملة فالكتاب كما كتب على غلافه: مساهمة من المؤلف في تأصيل هذا اللون من التفسير، ووضع مناهج فيه، مع أمثلة تطبيقية.

ـ نبذة مختصرة عن مؤلف الكتاب:

هو الأستاذ الفاضل الدكتور مصطفى مسلم محمد، من مواليد سنة 1940م، وهو معدود من علماء الأزهر الشريف، إذ قد حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة الأزهر.

وأهم ما يميز الدكتور مصطفى سمته وتواضعه وتقواه، مع ما آتاه الله تعالى من علم ومعرفة، والعلم والتقى إذا اجتمعا في شخص فقد عم خيره، وسطع نوره، وكثر بره، {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}[20].

فبعد أن حصل على شهادة البكالوريوس في الشريعة الإسلامية من جامعة دمشق، وذلك في سنة 1965م، التحق بجامعة الأزهر بقسم أصول الدين، فحصل على درجة الماجستير سنة 1969م، ثم على درجة الدكتوراه في تخصص التفسير وعلوم القرآن سنة 1974م.

ثم تدرج في المراتب العلمية حتى حصل على درجة الأستاذية في التفسير وعلوم القرآن سنة 1994م.

وقد زاول عمله في عدد من الجامعات، ولم يزل يباشر عمله الجامعي حتى هذا العام، ، بارك الله تعالى في عمره وشكر سعيه.

وللدكتور الفاضل بحوث وكتب علمية متعددة في مجال تخصصه، وهو وإن لم يكن في عداد المكثرين من التأليف إلا أن الله تعالى رزق كتبه القبول، فهي تدرس في عدد من الجامعات الإسلامية، وأذكر في هذه العجالة ثلاثة من كتبه، وهي:

1 ـ الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه: (مباحث في التفسير الموضوعي)، ولا يخفى على المتخصصين ما لهذا الكتاب من أثر في الدراسات القرآنية التي تلته، ولم تزل الأجيال تتلمذ عليه في عدد من الجامعات الإسلامية.

2 ـ كتاب: (إعجاز القرآن)، وهو مأخوذ من رسالته في الدكتوراه كما أشار إلى ذلك في مقدمته حيث قال: (لما قرر تدريس مادة "إعجاز القرآن" في قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، أسند إليّ تدريس هذه المادة، وكانت فقرات المنهج المقرر قريبة من محتوى رسالتي (إعجاز القرآن) التي تقدمت بها لنبيل شهادة الدكتوراه من كلية أصول الدين بالأزهر، قمت

---

[20] سورة الحديد، آية: 21، وسورة الجمعة، آية: 4.

بمراجعة المباحث الموجودة في الرسالة، وأعدت فيها النظر اختصارا وإضافة لتتناسب وفقرات المنهج المقرر، ثم رأيت نشر هذه المباحث لتعم بها الفائدة إن شاء الله تعالى)، وقد عمت بحمد الله تعالى وتوفيقه.

3 -كتاب: (الثقافة الإسلامية ــ تعريفها ــ مصادرها ــ مجالاتها ــ تحدياتها)، وقد كتبت عنه تعريفا وتنويها بمكانته بعنوان: (الثقافة الإسلامية بحلة قشيبة وعرض جديد) نشر في مجلة المنبر الجامعي التي تصدر في جامعة الشارقة ــ العدد 45 سنة 2007م.

4 -كتاب: (معالم قرآنية في الصراع مع اليهود): والكتاب واضح من عنوانه، وبه تظهر أهميته، وقد اشتمل على موضوعات هامة مثل: مناقشة القرآن لليهود، وتوجيه ما ورد في تفضيل بني إسرائيل، وسنن الله في اليهود، والمعارك مع اليهود، ثم مستقبلنا مع اليهود، وغيرها من الموضوعات التي ينبغي للمسلم أن يكون على وعي ودراية تامة بها.

ولا يخفى أن الدكتور الفاضل يعد من أبرز رجال التفسير في العصر الحاضر، لاسيما في التفسير الموضوعي، إذ هو فارس هذا الميدان، ومن أقدم من أفرده بالتأليف، ولذا فسأكتفي بهذه الإشارة السريعة، إذ ليس الغرض هنا كتابة ترجمة مفصلة عن المؤلف، وإنما هي لمحة مختصرة، جاءت وفق متطلبات البحث.

المطلب الثاني: جوانب القوة في عرض الموضوع.

وقبل البدء بذكر جوانب القوة في الموضوع، أبدأ بوصفه بوجه عام:

عنوان الموضوع: "الألوهية من خلال آيات القرآن".

عدد الصفحات: سبعون، من ص 94 ــ 164.

ابتدأ المؤلف الفاضل بخمس مقدمات بين يدي الموضوع، وهي:

1- الألوهية والفطرة.
2- اهتمام القرآن الكريم بالتوحيد أكثر من اهتمامه بإثبات وجود الخالق.
3- منهج القرآن في إثبات التوحيد منهج فطري.
4- ربط قضايا العقيدة بمصالح العباد في حياتهم المعاشية.
5- مجالات الاستدلال على قضية الألوهية.

وهي مقدمات مهمة في توضيح فكرة الموضوع،

ثم شرع في ذكر أبرز أنواع الأدلة على توحيد الله جل جلاله في القرآن الكريم.

وبعد أن ذكر الحكمة في تنوع الأدلة، عرض أدلة الخلق والإبداع، وأدلة العناية، وأدلة الفطرة، والبراهين العقلية.

ثم ذكر أدلة التوحيد من خلال إثبات صفات الكمال، ثم الخاتمة.

بعد هذا العرض العام للموضوع، سأحاول أن أبرز جوانب القوة فيه وأجملها في نقاط محددة على النحو الآتي:

1- المقدمات الخمس التي سبق ذكرها، قد جاءت على غاية من الأهمية، وهي ذات ارتباط وثيق بعنوان البحث.

2- التركيز على الموضوع القرآني، وعدم إقحام غيره معه، فنرى أن الاستشهاد بالسنة المشرفة ــ مثلا ــ قد جاء في مواطن محددة اقتضتها طبيعة البحث، ولا غرو فإن السنة شارحة للقرآن، وذلك مثل استشهاده على أن الأصل في النفس الإنسانية الفطرة التي فطر الله الناس عليها، حيث قال ص 96:

وإلى هذا يشير الرسول صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه، هل تنتج البهيمة إلا بهيمة جمعاء، هل تحس منها من جدعاء) رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

ونظير هذا ما نقله في ص 105 عن الشهرستاني في كتابه " نهاية الإقدام في علم الكلام، تعقيبا على إقرار الفطرة بوجود الخالق: (ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود

الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشرك)، فهي كما ترى عبارة وجيزة موفية بالغرض، وضعها الدكتور الفاضل في موضعها كما يوضع الملح في الطعام.

3 - حسن اختيار المراجع التفسيرية، فقد رجع في ذلك إلى الكتب التي لها عناية واهتمام بأهداف السورة وبيان ملامحها، والأساليب المتبعة في أفكارها [21] ككتاب: في ظلال القرآن لسيد قطب، والتحرير والتنوير لابن عاشور رحمهما الله تعالى، وإن كنا نلاحظ قلة المراجع التفسيرية في البحث.

4 - لفت الأنظار إلى اهتمام القرآن بمصالح الإنسان، وهذا أمر مهم في إبراز الهدايات القرآنية، فيقول تحت عنوان: "ربط قضايا العقيدة بمصالح العباد في حياتهم المعاشية" ص 111: (ولو تتبعنا مادة {سخر}، وكلمة {لكم} في القرآن الكريم، لوجدنا العجائب من مجالات اهتمام القدرة الإلهية بمصالح عباده في هذا الكون).

وهذا تنبه حسن، له أهميته في باب الدعوة، وإقبال الناس على هذا الدين العظيم، وهي حقيقة قد يغفل عنها كثير من الناس، وقد أشار إلى هذا الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى وذكر في كتابه الموافقات: أن القاعدة المقررة أن الشرائع إنما جئ بها لمصالح العباد، فالأمر والنهي والتخيير جميعا راجعة إلى حظ المكلف ومصالحه، لأن الله غني عن الحظوظ، منزه عن الأغراض [22] سبحانه وتعالى.

5 - تنزيل الآيات على الواقع[23]، وربط القارئ بأبرز الأحداث المؤثرة، وذلك لدى تكلمه عن تنوع المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد، فانظر ص 119 كيف لفت النظر إلى تلك الحادثة العجيبة التي حصلت للدكتور عناية الله المشرقي مع الفلكي المشهور السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كمبردج عندما رآه يذهب إلى الكنيسة والإنجيل تحت إبطه، ثم تواعدا على لقاء .. وعندما اجتمعا تحدث عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللآمتناهية، وطرقها، ومداراتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة .. حتى إنني شعرت ــ أي الدكتور عناية الله ــ بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائما، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة، ثم بدأ يقول:

---

[21] أتحفظ عن مثل هذا التعبير عن كتاب الله تعالى.

[22] انظر الموافقات كتاب الجهاد ــ المسألة الخامسة 148/1.

[23] تنزيل الآيات على الواقع يعني ــ كما يقول الدكتور عبد العزيز الضامر ــ مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة، أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية.
انظر كتاب: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين ص 33.

(يا عناية الله، عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله، يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: إنك لعظيم، أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت يا عناية الله، لماذا أذهب إلى الكنيسة؟ ثم يقول له عناية الله: لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، تذكرت بهذه المناسبة آية من كتابي المقدس، فلو سمحتم لي بقراءتها عليكم، فهز رأسه قائلا: بكل سرور، فقرأت عليه الآية التالية: {ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء}[24]، فصرخ السير جيمس قائلا:

ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء؟ مدهش! وغريب! وعجيب جدا!! إن الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمدا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى به من عند الله).

حقا لقد كان الدكتور الفاضل دقيقا في النقل، عارفا بمواطن الفائدة، مقتصرا على ما لا بد منه، متحاشيا عن الاستطراد البعيد، حريصا على ربط القارئ بالواقع الذي يعيشه، ولا ريب أن هذه من أبرز سمات التفسير الموضوعي.

6 – التنبيه إلى دقائق الكتاب الكريم، ومحاولة استشراف المستقبل، وان ما قد يغيب إدراكه في عصر قد يدرك في عصر آخر، فبعد أن ذكر أن هناك آيات تتناول الكون والسموات والأرض بشكل عام، يقول ص 124:

(إلا أننا نجد أن آيات كثيرة تخصص مجالا واحدا من المجالات، ثم تفصل فيه تفصيلا دقيقا، بل قد تدخل في التفصيلات ما لا تدركه حواسنا ومعلوماتنا الحاضرة، ولعل أمام الأجيال اللاحقة فسحة من البحث والتقصي والتدبر لإدراك جوانب ودقائق أخرى، ولا يحيط بعلم الخالق أحد)، ثم ضرب أمثلة على ذلك.

وهذا من التنبيهات المهمة، حيث قد وقفنا في زماننا على ما توصل إليه العلم الحديث من مكتشفات قد أشار إليها القرآن لم يقف عليها السابقون، ومن يطلع على مؤتمرات

---

[24] سورة فاطر، الآيتان: 27و28.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وما قدم فيها من بحوث علمية، تظهر له هذه الحقيقة واضحة جلية[25].

7 - للدكتور الفاضل تعقيبات مفيدة ونافعة في بعض المواطن، انظر ــ مثلا ــ ص 127، ورده على الملاحدة والقائلين بنظرية الصدفة أو قدم العالم المادي، وما نقله عن (إدوارد لوثركسيو) وهو عالم متخصص في علم الحيوان حيث يقول: (وهكذا أثبتت البحوث العلمية ــ دون قصد ــ أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائيا وجود الإله، لأن كل شيء له بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى خالق)، ونظير هذا ما نقله في ص 135 قول بعضهم: (إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي، شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة)!! وفي هذا دلالة على حسن النقل ودقة الاختيار، فتجد أن النص المنقول على وجازته يقع موقعه، ويؤدي الغرض الذي نقل من أجله، مما يؤكد الالتزام بالمنهج السليم في بحث الموضوع القرآني.

8 - وفي ضوء النقول المتقدمة وغيرها، نجد أن النقل يقتصر على ماله تعلق بالموضوع، ومن الكتب المتخصصة، مثل: كتاب "الله يتجلى في عصر العلم"، وكتاب "الإنسان لا يقوم وحده"، الذي ترجم إلى العربية بعنوان: "العلم يدعو إلى الإيمان"، وكتاب: "الإسلام يتحدى"، وغيرها.

9 - اعتماد الأحاديث الصحيحة في الاستدلال والاستشهاد، فجل الأحاديث التي وردت في ثنايا البحث من الصحيحين أو أحدهما، وهذا يتفق مع المنهجية السليمة في البحث في الموضوع القرآني كما هو معلوم.

10 - تضمين الخاتمة أجمع الآيات التي سيقت للاستدلال على توحيد الله سبحانه وتعالى، وتضمنت أنواع الأدلة، فالقارئ تهمه الخاتمة كما تهمه المقدمة.

---

[25] إن كتب الإعجاز العلمي والبحوث المتنوعة في هذا المجال، كثيرة جدا، شملت أوجه الإعجاز في مجال العدوى والطب الوقائي، وعالم النحل، واللبن ومكوناته، والحبة السوداء، وعلم الأجنة، وآيات السمع والبصر، وعالم البحار، وعالم النبات، وناصية الإنسان، وأنواع الرياح والسحاب والمطر، وسرعة الضوء، ونشأة الذرية، والمفهوم الجيولوجي للجبال، والاستشفاء بالصلاة، وتداعي الجسد للإصابة بالمرض، وغيرها كثير، ومن أراد التعرف على هذا ونحوه، فليزر موقع هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة .

وأما المؤتمرات فقد بلغت عشر مؤتمرات، عقدت في مختلف البلاد الإسلامية، مثل اسلام آباد بباكستان سنة 1408هـ، ، ومصر سنة 1409هـ، والرياض سنة 1411هـ، وداكار بالسنغال سنة 1421هـ، وموسكو بروسيا سنة 1414هـ، وجدة سنة 1417هـ، وأندونيسيا سنة 1419هـ، وبيروت بلبنان سنة 1421هـ، ودبي بدولة الإمارات العربية المتحدة سنة 1425هـ، والكويت سنة 1427هـ، والجزائر سنة 1428هـ، وتركيا سنة 1430هـ، والبرازيل سنة 1431هـ.

وما أجمل أن يختم البحث بهذين البيتين:

فيا عجبا كيف يعصى الإلـــــــه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء لـــه آيـــة تدل على أنـــه واحـــــد

ولو ذكر البيت الثالث لكان أحسن، وهو قوله:

ولـلــــه في كل تحريكـــة وتسكيـــــــــــــنة أثر شاهد

11 - اتسم البحث بسلامة اللغة، وجمال الأسلوب، وحسن العرض، وجودة التعبير، واتباع الأسلوب البياني الصحيح المفهوم، بعيدا عن التعقيد والتكلف في ذلك.

هذا عرض سريع لما رأيت أنه من جوانب القوة في عرض هذا الموضوع القرآني، الذي أحسن الدكتور الفاضل اختياره، لما له من أهمية ومكانة.

المطلب الثالث: بعض المَلاحظ على الموضوع.

بعد قراءة موضوع: (الألوهية من خلال آيات القرآن) والتأمل فيه، واستحضار منهجية البحث فيه، بدت لي بعض الملاحظ، رأيت أن أذكرها أيضا بشكل نقاط محددة، على النحو الآتي:

1 - لم يذكر الدكتور الفاضل تعريف الألوهية، لا لغة ولا اصطلاحا، وما المعاني التي يطلق عليها الإله،؟ ولم يشر إلى الفرق بين الإله الحق والإله الباطل.

2 - كما أنه لم يذكر شيئا من أسباب النزول، ولم يتعرض لذكر المكي والمدني، وما سر ذكر الألوهية في القرآن المدني بعد قيام المجتمع الإسلامي؟

3 - لم يشر إلى العلاقة بين الألوهية والربانية، وهل هما شيء واحد أم يختلفان؟ مع أنه استشهد بكثير من الآيات جاءت بلفظ الرب؟

4 - قلة العناوين الفرعية، مع أنها مهمة جدا ــ لاسيما والكتاب مقرر دراسي ــ، فذلك أدعى لاستيعاب الطلبة لها، ورسوخ المعاني في أذهانهم.

5 - أشرنا في جوانب القوة إلى حسن اختيار المراجع التفسيرية، إلا أن ذلك جاء مقتضبا جدا، فلم نر بين تلك المراجع سوى تفسيرين فقط، وشيء من تفسير أبي السعود ذكره في الهامش، ولا يخفى أن وفرة المراجع تثري البحث، وتوقف الباحث على نكات تفسيرية هامة.

6 - لم يعن ببيان كل ما ورد من الغريب، وشرح ما غمض من الكلمات، مثل: الطواطم، جدعاء، قنوان، تسيمون، وعَجْب الذنب، ونحوها، واكتفى ببيان بعض ذلك[26].

7 - لم يستكمل تخريج الأحاديث بذكر رقم الحديث والباب الذي ورد فيه، كما إنه لم يحكم على ما أورده من الأحاديث في غير الصحيحين أو أحدهما.

8 - لم يعز الأشعار إلى قائليها، ولم ينسبها إلى مواضعها في دواوين الشعراء.

ومعذرة للدكتور الفاضل، فهذه الملاحظ قد اقتضتها طبيعة البحث، وهي هينة يسيرة لا تؤثر على قيمة البحث وقوته.

ولذا فإني أرى أن البحث يصلح أن يكون مثالا يحتذى في إرساء المنهجية السليمة لدراسة موضوعات من خلال القرآن الكريم، ضمن الموسوعة التي كان من أهداف عقد هذا المؤتمر العمل على إصدارها.

---

[26] قد يعتذر للدكتور الفاضل بأنه يريد من الطلبة أن يتدربوا على معرفة هذه المعاني بأنفسهم، وذلك بالرجوع إلى معاجم اللغة وكتب التفسير.

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسنها

وبعد هذا التطواف السريع في الموضوع القرآني ونقده، أذكر أهم نتائج البحث في نقاط محددة على النحو الآتي:

1 - من دلائل أهمية التفسير الموضوعي عناية العلماء به وإقبالهم عليه تعلما وتعليما وتأليفا، وقد كان للمضوع القرآني من ذلك النصيب الأفر.

2 - عدم وضوح فكرة المصطلح القرآني لدى كثير من طلبة الدرسات العليا، كان سببا بارزا في الخلط بينه وبين الموضوع القرآني في عدد من الرسائل الجامعية.

3 - جنوح كثير من تلك الرسائل عن المنهج الصحيح في الكتابة في التفسير الموضوعي.

4 - لعل من أبرز الأسباب في الإخلال بالمنهج الصحيح، وعدم التقيد بالخطوات المطروحة، هو ملاحظة الكم في الرسائل الجامعية.

5 - ملاحظة التكلف والتعسف في ذكر المناسبات، واستنتاج الهدايات، مما كان له أثر فاعل في عدم تحقيق الثمار المرجوة.

6 - من أظهر مميزات موضوع (الألوهية من خلال آيات القرآن): تنزيل الآيات على الواقع، ولفت الأنظار إلى اهتمام القرآن بمصالح الإنسان، وإيقاظ حس المسلمين، وتذكيرهم بما في كتاب ربهم من إشارات علمية هامة.

7 - من أبرز الملاحظ العلمية على موضوع (الألوهية من خلال آيات القرآن): عدم بيان العلاقة بين الألوهية والربانية.

8 - يمكن اعتبار (موضوع الألوهية من خلال آيات القرآن)، أنموذجا يحتذى في كتابة الموضوعات القرآنية.

وأما التوصيات والمقترحات:

1 -العمل على إنشاء مجمع عالمي لأهل التفسير على غرار المجامع الفقهية وغيرها، يناقش فيه ما يتعلق بالتفسير بوجه عام، والتفسير الموضوعي بوجه خاص، وحبذا لو تم إقرار ذلك انطلاقا من هذا المؤتمر المبارك، وتسجيل الأعضاء وترشيح الرئيس.

2 -تشكيل لجنة علمية من ذوي التخصص، تهتم باختيار موضوعات من خلال آي القرآن الحكيم، وطرحها أمام الباحثين لدراستها والكتابة فيها.

3 - حصر التفسير الموضوعي بالموضوع القرآني، وجعل الألوان الأخرى علوما مستقلة، تدخل ضمن الدراسات القرآنية.

4 - تضافر الجهود لوضع خطة سليمة وتعميمها على الجامعات الإسلامية، لتكون خطة موحدة للكتابة في التفسير الموضوعي.

فهرست أهم المراجع

ــ بعد القرآن الكريم.

ــ التفسير الموضوعي للدكتور محمد القاسم ــ القاهرة سنة 1401هـ.

ــ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي ــ دار النفائس ــ الأردن ــ الطبعة الأولى سنة 1418هـ / 1997م.

ــ التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم بإشراف الدكتور مصطفى مسلم ــ تحت الطبع.

ــ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين للدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ــ الطبعة الأولى سنة 1428هـ / 2007م.

ــ دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للدكتور زاهر بن عواض الألمعي ــ مطبعة النرجس التجارية ــ الطبعة الثانية سنة 1422هـ / 2001م.

ــ مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ــ دار القلم ــ دمشق ــ الطبعة الثالثة سنة 1421هـ / 2000م.

ــ المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ــ مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية سنة 1411هـ / 1991م.

ــ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للأستاذ جواد علي (ت 1987م) ــ مطبعة الساقي ــ سنة 1422هـ / 2001م.

ــ مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي للدكتور أحمد بن عثمان رحماني عالم الكتب الحديث ــ الأردن سنة 2008م.

ــ الموافقات للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت 790هـ) بشرح عبد الله دراز ــ دار المعرفة ــ بيروت.

ــ موقع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ــ شبكة المعلومات الدولية.

ــ موقع ملتقى أهل التفسير ــ شبكة المعلومات الدولية.

ــ النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت 606هـ) ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.